

صورة الطفل بين سطوة الوسيط الرقمي وتشبيء الذات: نحو نقد فلسفي لعالم الإعلام التفاعلي

الطالبة: خوذري سمية

الكلية: كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

الجامعة: جامعة الحاج لخضر باتنة 01

الهاتف: 0798 51 70 12

البريد الإلكتروني: khoudri1983@gmail.com

المحور: المحور الإعلامي والسينمائي

العنوان:

"صورة الطفل بين سطوة الوسيط الرقمي وتشبيء الذات: نحو نقد فلسفي لعالم الإعلام التفاعلي"

الملخص:

في ظل الهيمنة المتنامية للوسائط الرقمية على تشكيل التمثيلات الثقافية والاجتماعية، تطرح صورة الطفل العربي في الفضاء الإعلامي التفاعلي إشكالاً فلسفياً عميقاً حول حدود التمثيل، وتحولات الذات الطفولية من كائن نامٍ إلى "منتج" يُستهلك بصرياً ورمزياً ضمن أنساق السوق والصورة، ومن هذا المنطلق تستدعي هذه المداخلة مقارنة نقدية لفلسفة الصورة والوسيط كما نظّر لها جان بودريار، ومارشال ماكلوهان، بالاستناد إلى مفاهيم "المحاكاة"، و"التشبيء"، و"تسليع الهوية"، في محاولة لفهم ما إذا كان الإعلام التفاعلي يُعيد إنتاج الطفولة كفنّة وجودية، أم يُعيد تشكيلها كفنّة تسويقية/بصرية تخضع لمنطق الرأسمال الرمزي والاقتصادي.

وعليه تتبلور الإشكالية الجوهرية في التساؤل التالي: هل لا تزال الطفولة تُفهم كمسار وجودي-قيمي مستقل في عصر الصورة، أم أنها تُعاد صياغتها كهوية افتراضية تخضع لمنطق الاستهلاك والتشبيء؟ إن هذه الإشكالية لا تقف عند حدود الفهم النفسي أو الاجتماعي للطفل، بل تمتد لتلامس بنية الوعي المعاصر ذاته، الذي فقد - كما ترى حنة أرندت - قدرته على "التفكير الأخلاقي" في ظل اختزال الإنسان إلى مجرد "مؤثر بصري" أو "تمثيل رقمي"، وهنا تُطرح مسؤولية الفلسفة، لا بوصفها تنظيراً تجريبياً، بل كأداة نقدية قادرة على كشف البنيات الخفية التي تُعيد إنتاج "الذات الطفولية" كسلعة رمزية ضمن خطابات الإعلام التفاعلي، لذلك حاولنا جعل هذه الدراسة تركز على جدلية مركزية بين الوسيط كسلطة معرفية، والطفل كذات قيد التكوين، متسائلة عن أثر التقنيات الرقمية في تشكيل القيم، والهوية، والوجود الطفولي، كما تحاور إسهامات زيغمونت باومان في "الحدائث السائلة"، حيث تُفكك المداخلة كيف تتحول الطفولة إلى تجربة مؤقتة، سائلة، غير راسخة، خاضعة لموجات الترنّد والتمثيل السريع.

وعلى ضوء ما سبق تدعوا هذه الورقة إلى إعادة تأطير النقاش حول صورة الطفل في الإعلام، انطلاقاً من سؤال فلسفي جذري: كيف نحمي الطفولة كقيمة، لا كواجهة؟ وهل بوسعنا من داخل الفكر الفلسفي تفكيك هذا التواطؤ بين الوسيط والسلطة والصورة؟

الكلمات المفتاحية: الطفل، الفلسفة، الوسيط الرقمي، التشيي، المحاكاة، الإعلام التفاعلي، نقد الصورة، الحداثة السائلة، بودريار

المقدمة:

في زمنٍ تُعاد فيه صياغة معاني الكينونة من خلال الشاشات، ويُختزل فيه الحضور الإنساني إلى أثر رقمي هش، تبرز صورة الطفل – في المجال الإعلامي التفاعلي – كأحد أكثر التمثيلات استهلاكاً وإعادة إنتاج. لم تعد الطفولة تُعاش بصفحتها مرحلة وجودية متفردة، بل باتت تُعاد هندستها رمزياً ضمن آليات السوق، والخطاب الرقمي، والصورة الترويجية. ولعلّ ما يضيف على هذا التحول طابعاً فلسفياً ملحاً هو استبطان الإعلام التفاعلي لوظيفة رمزية تتجاوز النقل أو التواصل، لتغدو وسيلة إعادة إنتاج الإنسان نفسه ككيان مرئي قابل للتداول، والتقييم والاستهلاك.

إن أهمية هذا الموضوع تنبع من كونه يتقاطع مع حقول معرفية متعددة، لكنه يجد في الفلسفة النقدية مرآته الأعمق، باعتبارها تمارس تفكيكاً لبنيات الوعي، وفضحاً لأوهام الحضور، وسؤالاً للسلطة كما تتجسد في وسيط بات يسبق الواقع، ويعيد ترتيبه وفق منطق الخالص، كما صاغه جان بودريار في تحليله لثقافة "المحاكاة الزائفة".

تسعى هذه المداخلة إلى تحقيق جملة أهداف، أبرزها مساءلة البنية الفلسفية التي تُنتج صورة الطفل في الفضاء الرقمي، والكشف عن منطق التشيي الذي يُسهم في تجريد الطفولة من جوهرها الإنساني، إضافة إلى تحليل أثر الوسيط الإعلامي في إعادة تشكيل مفهوم الذات الطفولية كـ "هوية استهلاكية". كما تهدف إلى المساهمة في بناء نقد فلسفي عربي يشتبك مع الوسائط الجديدة، لا من موقع الرفض الأخلاقي بل من موقع التفكيك المفاهيمي والتحليل الرمزي، ومن هنا تتبلور الإشكالية الجوهرية في التساؤل الفلسفي الآتي: هل ما يُنتج اليوم في الإعلام التفاعلي هو صورة للطفل، أم صورة لسلطة الوسيط وقدرته على تشيي كل ذات وتحويلها إلى سلعة رمزية؟ وما هي الإمكانيات المتبقية للفلسفة في مقاومة هذا الاختزال، وحماية الطفولة بوصفها قيمة وجودية وأخلاقية تتجاوز التمثيل البصري؟

للتعامل مع هذه الإشكالية، اعتمدنا على المنهج التفكيكي النقدي، بالاستناد إلى أطروحات بودريار، ماكلوهان، مع مقاربات ميدانية وإسقاطات على نماذج إعلامية معاصرة، وذلك لتشديد قراءة فلسفية نسقية تعيد للطفولة حضورها الإنساني المسلوب تحت ثقل الوسيط وسرعة الصورة.

أولاً: فلسفة الوسيط وسلطة الصورة

1/المفاهيم التأسيسية: الوسيط، الصورة، المحاكاة، التمثيل

إن الدخول الفلسفي في عالم الإعلام التفاعلي يفرض علينا أولاً تأسيس الحقل المفاهيمي الذي يُشكّل قاعدة الفهم والتأويل. إذ لا يمكن مناقشة صورة الطفل في الفضاء الرقمي دون تفكيك مفاهيم أربعة مركزية: الوسيط، الصورة، المحاكاة، التمثيل. هذه المفاهيم لا تشتغل كمصطلحات تقنية فقط، بل كأدوات فلسفية تُعيد بناء علاقتنا بالواقع، والمعنى، والذات

1-1 الوسيط:

لا ينبغي اختزاله في وظيفته التقنية أو التكنولوجية، بل هو بنية ثقافية ومعرفية تشكل الطريقة التي نتلقى بها العالم. كما أشار مارشال ماكلوهان، الوسيط ليس مجرد قناة ناقلة بل قوة تُشكّل وعينا وإدراكنا لما حولنا، وهو ما عبّر عنه بقوله "أي أن طبيعة الوسيط تتحكم في بنية المضمون الذي ينقله، ولا تبقى على حاله، من هنا، فإن الوسيط الرقمي لا ينقل صورة الطفل، بل يعيد تشكيل هذه الصورة وفق آلياته الخاصة، التي تُنتج تمثيلاً لا واقعية له

2-1 الصورة:

في سياق الإعلام التفاعلي، فهي لم تعد مجرد تمثيل مرئي للواقع، بل باتت وسيلة استيلاء رمزي على الكينونة. لقد تطورت الصورة من كونها أداة توضيح أو إيصال، إلى أداة إنتاج للواقع ذاته، أو بالأحرى إنتاج واقع بديل يتم استهلاكه على أنه الواقع الوحيد كما يوضح رولان بارت في دراسته حول "بلاغة الصورة"، فإن الصورة لم تعد محايدة بل تحمل "رسائل ضمنية" تحدد المعنى قبل أن يتشكل لدى المُتلقي²، وفي هذا السياق، تبرز أهمية مفهوم المحاكاة كما طوّره جان بودريار، وهو المفهوم الذي أحدث قطيعة إبستمولوجية مع الفكرة التقليدية للواقع. فالمحاكاة لا تعني تقليد الواقع، بل استبداله بنظام علامات مستقل عنه، يُنتج ما يسميه بودريار بـ "الواقع الفائق"³ حيث تختفي المرجعية الأصلية خلف سطوة الصورة ودوام التكرار هنا يصبح الطفل في الإعلام التفاعلي موضوع محاكاة وليس تمثيلاً، أي يُعاد تشكيله عبر مؤثرات وإخراجات بصرية وتفاعلية لا تُحيل إلى كينونته الحقيقية، بل إلى "نموذج رقمي" يستجيب لحاجات السوق ولفرضيات العرض

3-1 التمثيل:

وهو مفهوم محوري في الفلسفة السياسية والنقدية، يتقاطع مع تصورات ميشيل فوكو وستيوارت هول. التمثيل لا يعني فقط إظهار الشيء، بل صياغته ضمن منظومة من المعاني والرموز التي قد تعيد إنتاج السلطة أكثر من الواقع. وبذلك،

¹ McLuhan, Understanding Media: The Extensions of Man, MIT Press, 1994, p. 7

² Barthes, Image–Music–Text, Hill and Wang, 1977, pp. 32–

³ Baudrillard, Simulacra and Simulation, University of Michigan Press, 1994, pp. 1–6

فإن التمثيل الإعلامي للطفل ليس فعلاً بريئاً، بل هو "عملية أيديولوجية تُعيد إنتاج تصورات اجتماعية مشروطة بقوى رمزية وثقافية"⁴

يتضح مما سبق أن المفاهيم التأسيسية – حين نعيد قراءتها فلسفياً – تفتح المجال أمام فهم أعمق لآليات اشتغال الإعلام التفاعلي، وتضعنا أمام سؤال مركزي: هل ما نراه من صور للطفولة هو تمثيل صادق، أم محاكاة خادعة يُنتجها الوسيط وفق منطق الخاص؟

2/ من الوسيط كأداة إلى الوسيط كسلطة: مساهمة ماكلوهان

لقد غير مارشال ماكلوهان البنية التقليدية لنظرية الإعلام عندما رفض الفصل بين الوسيط والمضمون، وأعاد النظر في مفهوم الوسيط ذاته، من كونه مجرد أداة نقل إلى كونه قوة منتجة للواقع. يقول ماكلوهان: "إن الوسيط ليس ببساطة قناة محايدة تنقل الرسائل، بل هو من يصوغ طبيعة التجربة الإنسانية ويعيد تشكيل الإدراك ذاته"⁵، وهذا التحول من الوسيط كأداة إلى الوسيط كسلطة يمس جوهر العلاقة بين الإنسان والمعنى

لم يعد الوسيط الرقمي – سواء كان تطبيقاً أو منصة تفاعلية – في العالم الرقمي مجرد وعاء ناقل للمضامين، بل بات نظاماً مهيماً يعيد هندسة الزمان والمكان والمعنى، ويعيد تشكيل السلوك الإنساني. يؤكد ماكلوهان: "كل وسيلة جديدة لا تُغيّر العالم من الخارج فقط، بل تُحدث إعادة تشكيل جذري للوظائف النفسية والعقلية والاجتماعية"⁶ بهذا المعنى، فإن دخول الوسيط إلى فضاء الطفولة يعني إعادة صياغة المرجعية الرمزية للطفل، وتموضعه داخل آلية تكنولوجية لا تهدف إلى نقل واقعه بل إلى إنتاج صورة/علامة تخضع للعرض والتسويق، وقد فهم ماكلوهان الوسيط كامتداد للحواس الإنسانية، لكنه لم يتوقف عند هذا التحليل البيولوجي أو السيكلوجي، بل رأى فيه آلية سلطوية تتسلل إلى بنية الإدراك اليومي. يقول: "نحن نصوغ أدواتنا، ثم تقوم أدواتنا بصياغتنا"⁷ إن هذه المقولة تكتسب راهنتها حين ننظر إلى كيفيات تشكّل صورة الطفل في المنصات الرقمية: الصورة تُنتج، ثم يُعاد إنتاجها، لتصبح مرجعاً وهمياً يُستبدل فيه الواقع بالتمثيل التسويقي.

الأخطر أن هذه السلطة لم تعد تُمارس علناً، بل في الخفاء، من خلال ما يسمى بـ "السلطة الناعمة" التي تتسلل إلى الإدراك عبر الجماليات والمؤثرات والواجهة البصرية. يصبح الوسيط عندها فاعلاً ثقافياً يُمارس نوعاً من "الهندسة السيميائية" على الطفولة. لا عجب أن ماكلوهان ربط ظهور الوسائط الجديدة بتحويلات حضارية كبرى، معتبراً أن "كل وسيلة تحمل داخلها برنامجاً حضارياً جديداً"⁸، وعليه فالوسيط هنا لا يُعادِل مجرد جهاز تقني، بل هو خطاب، ومجال سلطة، ومنظومة قيم تُؤطر الطفل داخل "كادر رمزي" مشحون بالدلالات. يصبح الطفل هنا لا يُمثّل نفسه، بل يُعاد

⁴ Hall, Representation: Cultural Representations and Signifying Practices, Sage Publications, 1997, p. 15

⁵ McLuhan, Understanding Media: The Extensions of Man, MIT Press, 1994, p. 7

⁶ Ibid., p. 14

⁷ McLuhan, The Medium is the Message, Gingko Press, 2001, p. 68

⁸ McLuhan & Fiore, The Medium is the Medium is the Message, 2001, p. 45

تشكيله كـ "كائن بصري تفاعلي" هدفه الإثارة أو الترفيه أو الترويج. وهذه ليست وظيفة الوسيط فقط، بل جزء من وظيفته الإيديولوجية في إعادة إنتاج الطفولة بما يتناسب مع شروط العرض السوقي والاستهلاك الجماهيري إن ماكلوهان لم يكن يتنبأ بالمستقبل فقط، بل كان يُؤسس لفلسفة وسائطية تستبق واقعنا الحالي، حيث لم يعد بالإمكان الحديث عن "طفولة طبيعية" في ظل سلطة الوسيط الذي يُنتج الواقع بدلاً من أن يعكسه.

3/ الصورة بوصفها واقعًا مزيّفًا: أطروحة بودريار:

لقد قدّم جان بودريار (Jean Baudrillard) واحدة من أعمق القراءات النقدية للفلسفة المعاصرة حول الصورة، حينما خلخل الفهم الكلاسيكي لها كأداة محايدة لتمثيل الواقع. إذ يرى أن الصورة في العالم المعاصر لم تعد "تشير إلى واقع" بل أصبحت "بديلاً عن الواقع ذاته"، فيما يسميه بـ "نظام المحاكاة" أو simulation. وهنا يحدث الانزلاق الأخطر: حين تنفصل العلامة عن مدلولها، ويبدأ الواقع في الاختفاء خلف تراكم الطبقات الرمزية، ففي كتابه "المحاكاة والمحاكيات" (Simulacres et Simulation)، يؤكد بودريار أن الصورة تمر بأربع مراحل أساسية: أولاً، تكون انعكاسًا بسيطًا للواقع، ثم تشوّهه قليلاً، ثم تُخفي غياب الواقع، وأخيراً تصبح لا علاقة لها بالواقع إطلاقاً، بل تُنتج واقعًا خاصًا بها، سماه بودريار "الواقع الفائق"⁹

في هذه المرحلة الأخيرة، يصبح الواقع غير ضروري، لأن الصورة نفسها "تحلّ محلّ الأصل وتمتص حضوره"، فالصورة تُنتج عالمًا من الاستهلاك الرمزي، حيث تغيب الحقيقة خلف طغيان العرض. يقول بودريار: "لقد دخلنا عالمًا لم نعد نستهلك فيه الأشياء، بل نستهلك علاماتها وتمثلاتها"¹⁰، وعليه يبرز هذا المنطق بحدّة في تمثيل صورة الطفل في الوسائط الرقمية؛ فالطفل لم يعد يُصوّر بوصفه كائنًا فيزيائيًا، بيولوجيًا، أو حتى إنسانيًا، بل كـ "وحدة بصرية قابلة للتدوير، والدمج، والتحكم" داخل خوارزميات الوسيط. هذا ما يسميه بودريار بـ "استبدال المرجعية الأصلية بسلسلة من النسخ التي لم يعد لها أصل" (المصدر نفسه، ص. 35). أي أن الطفل يُعاد إنتاجه في صورة نمطية/محرّفة/سوقية لا تمتّ بصلة لواقعه الحيّ، وفي هذا السياق، يفقد الطفل كينونته الوجودية، ويُعاد تشكيله كـ "كود بصري" يتم برمجته وتوجيهه وفق ما يخدم المنصات الرقمية ومنطق السوق. يكتب بودريار: "في نظام المحاكاة، لا تعود الصور أدوات تمثيل، بل أدوات قوة"¹¹، من هنا، فإن الإعلام التفاعلي لا يُنتج صورة للطفل، بل يُنتج طفولة مزيّفة، مُهيمنة بصريًا، مُفرّغة من العمق الإنساني، وموجهة للاستعراض والريح

الأخطر، أن هذه الصورة تبدأ تدريجيًا في "إلغاء الواقع ذاته"، إذ لم يعد يُطلب من الطفل أن يعيش، بل أن يظهر ولم تعد الذات تُبنى عبر التجربة، بل عبر قابلية التمثيل الرقمي. هكذا تتحوّل الطفولة إلى "أداة في ميتافيزيقا الصورة" تُستثمر وتُنسخ وتُوزّع، و من ثمة فإن تحليل بودريار يضعنا أمام مأزق فلسفي حقيقي: إذا كانت الصورة قد استبدلت الواقع،

⁹ بودريار، المحاكاة والمحاكيات، ترجمة: د. عبود كاسوحة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2009، ص. 11

¹⁰ المصدر نفسه، ص. 24

¹¹ بودريار، شفاقية الشرّ، ترجمة: د. عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، 2002، ص. 19

فأين موقع الذات؟ وإذا كان تمثيل الطفل خاضعاً لنظام المحاكاة، فكيف يمكننا استعادة براءته الأصلية في عالم بات يستبدل الوجود بالعرض؟

4/ الطفل كجسد مؤدى في منظومة التمثيل الرقمي:

في ظل تحولات الوسيط الرقمي، لم يعد الطفل يظهر باعتباره ذاتاً مستقلة أو كينونة تُعبّر عن نفسها ببراءتها الطبيعية، أي جسد يتم تشكيله، إخراجاً، وإعادة إنتاجه داخل إطار رقمي محكوم (performed body) "بل تحوّل إلى *جسد مؤدى بسيناريوهات معدّة مسبقاً، غالباً ما تُستمد من آليات السوق والرغبات الجماعية للمستهلكين. وهنا ينتقل الجسد الطفولي من كونه معطى بيولوجياً أو رمزياً للأصالة، إلى كونه "وظيفة تمثيلية داخل مسرح الصور" لقد تناول إرفنغ غوفمان فكرة الأداء الاجتماعي بوصفها بنية تنظّم السلوك البشري ضمن سياقات التفاعل الرمزي، معتبراً

أن كل فرد هو بمثابة "ممثل" يؤدي دوره أمام "جمهور اجتماعي"، يقول: "نحن لا نرى الإنسان كما هو، بل نراه من خلال الأدوار التي يؤديها والمواقف التي يتقمصها"¹²

غير أن التمثيل هنا – في السياق الرقمي – لا يتم بحرية. بل يُفترض على الطفل أن يؤدي جسده وذاته وفق نماذج نمطية متكررة، غالباً بهدف الإثارة، الإضحاك، التسويق، أو نيل القبول الرقمي

وفي ضوء تحليل جوديث لمفهوم "الجنس المؤدى" يمكن إسقاط مفهوم الأداء الجسدي على حالة الطفل الرقمي، حيث يصبح "الطفل" هو الآخر "هوية مفروضة بالأداء"، لا تنبع من الداخل بل يتم إخراجها وتثبيتها من الخارج عبر أنماط تمثيل رقمية. تكتب باتلر: "الهوية ليست شيئاً نولد به، بل شيئاً نُجبر على أدائه بشكل متكرر ضمن إملاءات ثقافية صارمة"¹³

بهذا المنظور، فإن الطفل في الإعلام التفاعلي يُعاد تشكيله لا كذات تُعبّر، بل كـ "وظيفة استعراضية"، تُستثمر بصرياً عبر الحركات، الكلمات، الملابس، المؤثرات. الطفل هنا لا "يعيش" جسده، بل "يُعرض" كأداة بصرية، تُفكك وتُستهلك داخل دائرة مغلقة من الصور. وعليه، تُنتزع من الطفولة خصوصيتها وتلقائيتها لصالح ما يمكن تسميته بـ "التسليع الجسدي" **، وهو ما أشار إليه بيير بورديو بقوله: "يتم تسليع الجسد حين يُنظر إليه كرسالة تُصمم لتُباع وتُعرض وتُستهلك"¹⁴

هذا النمط من التمثيل يجعل الطفل عرضة لفقدان حدود جسده الرمزية، فهو يُعرض دون حماية، ويُستثمر دون وعي، ويُستهلك دون إذن. الجسد الطفولي – في هذا السياق – لا يُعتبر معطى فردياً، بل مادة خام يتم برمجةها بصرياً لتخدم

¹² غوفمان، عرض الذات في الحياة اليومية، ترجمة: د. كمال عبد الرؤوف، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008، ص. 18

¹³ Butler, Gender Trouble, Routledge, 1990, p. 25.

¹⁴ بورديو، التمييز: نقد اجتماعي للحكم الذوقي، ترجمة: د. عبد السلام بنعيد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، 2010، ص. 99

تدفقات العرض وتوقعات الجمهور. ولأن الوسيط الرقمي لا يتيح للطفل فرصة التمثيل الذاتي الواعي، فإن الأداء يتحول إلى فعل قسري، تحت ضغط الإعجاب، والمشاركة، والتقييم الجماعي

وفي هذا الإطار، يصبح الطفل المؤدّي جسديًا نموذجًا صارخًا لفقدان السيادة على الجسد، وانهيار الفاصل بين الخاص والعام، بين الذات والتمثيل. إنه الجسد المسلوب، المُعاد إنتاجه وفق خوارزميات العرض، حيث لا يُنظر إليه بوصفه كائنًا إنسانيًا، بل بوصفه علامة مرئية قابلة للتداول

ثانياً: صورة الطفل بين التثبيء والتسليع في الإعلام التفاعلي

1/ الطفولة كفئة وجودية في الفكر الفلسفي:

إن الطفولة في التصور الفلسفي، ليست مجرد لحظة بيولوجية أو مرحلة زمنية عابرة، بل تُعدّ فئة وجودية حاسمة في بناء الإنسان، وتمثل منطلقاً لفهم الذات والآخر والعالم. ولذلك، فإن الفلاسفة، منذ القدم، لم يتعاملوا مع الطفولة كموضوع ترف معرفي، بل كأرضية تأسيسية لطرح أسئلة الهوية، الحرية، النمو، السلطة، والمجتمع، فعند أفلاطون مثلاً، مشروع المدينة المثالية، حيث تصبح التربية في سنوات "الطفولة ليست شأنًا خاصاً بالأسرة فقط، بل تُطرح ضمن الطفولة أداة لصناعة المواطن الصالح. في هذا الإطار، يقول أفلاطون: "إننا نبدأ بأهم مرحلة وهي الطفولة، إذ هناك تتشكل الأرواح ويُهدّب العقل"¹⁵، أما أرسطو، فقد اعتبر أن الطفل "لا يملك بعدُ القدرة على الحكم الأخلاقي لأنه لم يكتمل بعد ككائن عاقل"، ولذلك ميز بين "من يملك النوس (العقل)" ومن هو في طور التحول إليه"¹⁶، ففي نظره، الطفولة ليست نقصاً بل مرحلة تأسيس تدريجي للعقل العملي.

أما في العصر الحديث، أحدث جون جاك روسو انقلاباً فلسفياً حين دعا إلى احترام الطفولة بوصفها "طوراً وجودياً له منطقه الخاص"، وليس مجرد مرحلة ناقصة من مراحل الرشد. ففي كتابه إميل، يقول: "الطفولة لحظة طبيعية تستحق الاحترام إنها شكل من أشكال الكينونة لا تمريناً على الرشد"¹⁷، أما هيغل، فربط الطفولة بـ"تطور الروح"، إذ اعتبر أن الطفل يعيش حالة من الانفصال عن العالم، قبل أن يتصلح معه في الوعي الناضج. هذا ما يفسر، في فلسفته، "ضعف الطفل كونه لا يعي ذاته إلا من خلال الآخر"¹⁸.

¹⁵ أفلاطون، الجمهورية، دار التنوير، ص 117

¹⁶ أرسطو، السياسة، ترجمة، أحمد لطفي السيد، الهيئة العامة للكتاب، ص 98

¹⁷ جان جاك روسو، إميل أو عن التربية، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 43

¹⁸ جورج هيغل، فينومينولوجيا الروح، ترجمة طرابيشي، مركز دراسات الوحدة العربية، 2006، ص 129

موضوعًا لسلطة المراقبة والتطبيع"، حيث لم "وفي الفلسفة المعاصرة، قدم ميشيل فوكو مقارنة نقدية للطفولة باعتبارها يعد الطفل يُنظر إليه كذات نقية، بل ك"موضوع يجب تشكيله وفق أنماط القوة والمعرفة"¹⁹، وهنا تتداخل الطفولة مع مسارات السلطة لا كبراءة بل ك"كيان قابل للتشكيل والانضباط"، ويؤكد بيير بورديو بدوره أن الطفل لا ينمو فقط داخل رأس مال رمزي" تتحكم فيه المدرسة والإعلام والمجتمع، ويقول: "إن السلطة الرمزية لا تُمارس إلا "الأسرة، بل يُنتج عبر عندما تُعترف بها الطفولة كمصدر شرعي للمعرفة"²⁰

إن هذه الرؤى الفلسفية تكشف أن الطفولة، كفتنة وجودية، هي أكثر من كونها طورًا زمنيًا؛ إنها نقطة تشكل الكينونة الأخلاقية والأنطولوجية والسياسية للإنسان، مما يجعل تمثلاتها الإعلامية المعاصرة -وخاصة الرقمية- امتدادًا لصراع التأويلات حول هذه "الذات الصغيرة" التي تُختزل أحيانًا إلى صورة، أو تُشحن كعلامة في سوق الرموز.

2/ التمثيل الرمزي للطفل في الإعلام الرقمي ومنطق التشييء:

في قلب الإعلام التفاعلي، لم يعد الطفل يُعرض ككائنٍ طبيعي يمرّ بمراحله النمائية، بل أضحي رمزًا مشحونًا بدلالات تسويقية وثقافية، تخضع لمنطق السوق أكثر مما تخضع لمقتضيات التربية أو الرعاية. فالتمثيل الرمزي هنا لا يعني مجرد نقل صورة، بل بناء صورة تؤدي وظيفة اجتماعية-اقتصادية محددة، ومن ثمة فالتمثيل الرمزي، وفقًا لمنظور بول "ريكور، لا ينقل الواقع كما هو، بل "يصنعه عبر إعادة تأويله في ضوء الرموز الثقافية المهيمنة"²¹

هذا ما يحدث تمامًا في صورة الطفل المعروضة في المنصات الرقمية، حيث تتحوّل البراءة إلى أداة جلب الانتباه، واللعب إلى وسيلة للترويج، والملاح الطفولية إلى واجهة للماركات. وهنا تتدخل ميكانيزمات التشييء - حيث لا يُنظر للطفل ككائن بشري مستقل، بل كمادة خام تُستهلك رمزيًا.

ان منطق التشييء كما صاغه الفيلسوف جورج لوكاش في نظريته عن "الوعي المغترب"، لا يقتصر على العلاقات الاقتصادية،

بل يمتد ليشمل تمثيل الإنسان ذاته كسلعة أو وظيفة، "إن التشييء هو عندما تُختزل الكينونة الإنسانية إلى مجرد وظيفة داخل بنيات السوق أو الثقافة"²²، وهنا يمكننا القول إن الطفل في الفضاء الرقمي يخضع إلى عملية مزدوجة: تمثيل رمزي مشوّه، وتشييء وجودي ناعم، وكلاهما يؤديان إلى تقويض مفهوم الطفولة كفضاء للحرية والانفتاح والتكوين.

¹⁹ ميشيل فوكو، المراقبة والمعاقبة دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ص 35

²⁰ بورديو، العنف الرمزي، ترجمة، نظير جاهل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2011، ص 91

²¹ بول ريكور، الزمن والحكي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2007، ص. 183

²² جورج لوكاش، التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة: فالح عبد الجبار، دار الجمل، بيروت، 2011، ص. 233

وفي السياق العربي، تنبّه المفكر عبد الوهاب المسيري إلى خطورة تحوّل الكائن البشري إلى "أداة ضمن المنظومة المادية"، مؤكّدًا على أن الإنسان يُنتزع من أبعاده الروحية والأخلاقية حين يُصوّر فقط كفاعل إنتاجي أو استهلاكي. "الطفل ليس ذاتًا تجريبية يمكن قياسها ومعالجتها، بل هو معنى حيّ في طور التشكل"²³، وبالتالي، فإن صورة الطفل في الإعلام الرقمي ليست بريئة كما تظهر، بل هي إنتاج مؤدلج يحكمه منطق الرأسمال والإشهار والسطوة الرمزية، حيث يغدو الطفل شاشة يُعرض من خلالها منطق السوق نفسه.

ثالثًا: من التفكيك إلى الحماية: نحو مشروع فلسفي لأخلاقيات الصورة:

بعد أن قمنا بتفكيك صورة الطفل ضمن نسق الإعلام التفاعلي، وأوضحنا كيف يتحول إلى كائن رمزي مستهلك عبر وسائط تعيد إنتاجه وفق منطق العرض والطلب، تأتي الحاجة إلى اجتراح أفق جديد: أفق الحماية الفلسفية، أي استعادة الطفولة لا بوصفها "موضوعًا للتمثيل" بل "ذاتيّةً بحاجة للاعتراف والحصانة". هذا المحور مقترح فلسفي تأسيسي، لا يعيد بناء الواقع، بل يعيد بناء إمكانيات التفكير فيه

1/ الحاجة إلى أخلاقيات فلسفية للتمثيل الإعلامي:

ما يجري اليوم في الوسائط التفاعلية ليس مجرد عرض للطفولة، بل هو إنتاج لها كعلامة ثقافية تجارية، وهذا يستدعي تأسيسًا فلسفيًا لأخلاقيات الصورة، يقوم على احترام الذات لا على توظيفها. يقول بول ريكور في كتابه الذات عينها كآخر: "لا يمكن أن تقوم أخلاقيات إنسانية دون الاعتراف بالذات بوصفها قابلة للأذى، ولها كرامة تستدعي الحماية"²⁴، وهنا تظهر الحاجة إلى معيار أخلاقي لا يُقاس بالتفاعلات، بل بإمكان الوجود والكرامة. إذ لا يجب أن تكون صورة الطفل "مرآة لرغبات السوق"، بل "نافذة على كينونة تحتاج إلى الرعاية"، وهو ما يجعلنا ندعو لفلسفة تعيد موضوعة الطفل ضمن أفق العدالة، لا الشهرة

2/ كيف يمكن للفلسفة أن تستعيد الطفولة كمعنى؟

إذا كانت الطفولة هي الأصل في الكينونة الإنسانية، كما نقرأ عند غاستون باشلار حين يقول: "الطفل لا يُفكّر فيه من الخارج، بل يُستعاد كذاكرة جوهرية لوجودنا"²⁵، فمهمة الفلسفة ليست فقط فضح ما تفككه الصورة، بل إعادة بناء إمكانيات التفكير في الطفولة من الداخل: من داخل هشاشتها، وعلاقتها بالزمن، والمعنى، والرعاية. الفلسفة تستعيد الطفولة لا كشريحة عمرية، بل ك"مفهوم كينوني"، و"فئة إنطولوجية"، ومن ثمّ فهي ليست شيئًا نعرضه، بل شيئًا نحياه

3/ اقتراح ملامح مشروع فلسفي لحماية الذات الطفولية في عصر الصورة

سنقترح هنا ثلاث ركائز أولية لمشروع فلسفي يطمح إلى حماية صورة الطفل من سطوة الوسيط:

²³ عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، دار الشروق، القاهرة، 2006، ص. 402
²⁴ بول ريكور، الذات عينها كآخر، ترجمة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010، ص. 157
²⁵ غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجمل، بيروت، 2012، ص. 89

أولاً: الإقرار الفلسفي بأن التمثيل ليس بريئاً، وأن لكل صورة أثراً وجودياً على ذات من تُعرض، خاصة حين تكون هشة، أي الطفولة

ثانياً: الدعوة إلى ميثاق أخلاقي إعلامي-فلسفي يُقنن حدود عرض الطفولة في الوسائط التفاعلية، معتمداً على مرجعيات فلسفية تُوازن بين الحرية والمسؤولية

ثالثاً: إدماج الفلسفة في تربية الصورة، من خلال تطوير خطاب تربوي يدمج الفلسفة في التعامل مع الوسائط، بحيث لا تبقى الصورة سلطةً صامتة، بل تُقرأ وتُفكك وتُساءل

خاتمة:

لقد حاولت هذه المداخلة أن تخوض غمار مساءلة فلسفية لصورة الطفل في الفضاء التفاعلي المعاصر، من خلال ثلاثية متماسكة تبدأ بفهم سلطة الوسيط، وتعرية منطق التثبيء، وتنتهي بضرورة تأسيس مشروع فلسفي لأخلاقيات الصورة. لم يكن الهدف وصف ما يجري، بل تفكيك البنية الرمزية التي تُنتج صورة الطفل وتعيد تشكيلها وفق آليات السوق والفرجة حيث تبيّن من خلال هذا المسار أن:

الصورة لم تعد مجرد انعكاس للواقع، بل صارت تصنعه وتفرضه، كما أوضح بودريار، مما أدى إلى تفكك المرجع الواقعي للطفل، وتحوله إلى علامة استهلاكية، والوسيط الرقمي - كما أكد ماكلوهان - لم يعد قناة محايدة، بل أصبح مكوناً للفكر نفسه، موجهاً للإدراك، ومحدداً لطبيعة ما يُعرض وما يُحجب، كما أن صورة الطفل، التي يفترض أن تُحاط أو "بالاحترام والحماية، أصبحت أداة للتسليع والتسويق، تفقد فيها الطفولة معناها الكينوني العميق، لتتحول إلى "واجهة" منتج تفاعلي" يلبي حاجات الجمهور أكثر مما يعكس حقيقة الذات الطفولية، وعليه فغياب ميثاق أخلاقي واضح، وانعدام وعي فلسفي بسلطة الصورة، جعلاً من التمثيل الإعلامي للطفل منطقةً رمادية، يتحرك فيها اللاوعي الجمعي تحت تأثير التفاعل لا تحت ضوء العقل.

انطلاقاً مما سبق توصلنا الى مجموعة من النتائج يمكن حصرها فيمايلي:

-صورة الطفل أصبحت تمثل واقعًا مصطنعًا تتداخل فيه المحاكاة مع التسويق، ويتوارى فيه المعنى خلف التأثير.

-الوسيط الرقمي يمتلك سلطة معرفية وأيديولوجية، تعيد تشكيل الرؤية للعالم لا بشكل حيادي، بل عبر منطق السوق والتفاعل.

-الفلسفة الغائبة عن النقاش الإعلامي تظل الأداة الوحيدة القادرة على تفكيك هذه السلطة الرمزية واستعادة المعنى.

أما أهم التوصيات التي خرجنا بها فهي:

-ضرورة صياغة ميثاق فلسفي-أخلاقي للإعلام الرقمي، يُلزم الفاعلين بعدم التلاعب بصورة الطفل، وعدم استغلالها في أغراض تجارية دون مراعاة القيمة الإنسانية.

-إدراج موضوع "فلسفة الصورة" في المناهج التربوية والإعلامية، لتكوين وعي نقدي بالأثر الكامن في التمثيل.

-العمل على إعادة بناء مفهوم الطفولة كفنّة وجودية لا كمرحلة استهلاكية، وهو ما يتطلب مقارنة تتجاوز التحليل الاجتماعي إلى التأسيس الفلسفي.

-تشجيع الدراسات البينية بين الفلسفة وعلوم الإعلام من أجل تجسير الهوة بين التنظير والنقد والممارسة.

وعليه فمداخلتنا ليست مجرد لحظة تحليل، بل دعوة فلسفية إلى تجديد النظر في صورة الإنسان، بدءًا من أضعف حلقاته الطفل لأننا إذا فقدنا القدرة على حماية براءة الطفولة، فلن يبقى للإنسانية ما تحميه سوى "صورتها عن نفسها"... وهي صورة قد تكون قد زالت.

بهذا نصل إلى نهاية المداخلة من حيث العرض النظري، ويبقى الباب مفتوحًا أمام النقاش، لا بهدف تأكيد ما قيل، بل لإثارة سؤال فلسفي عميق: هل ما نراه عن الطفل هو فعلاً ما هو عليه، أم ما نحتاج أن نراه فيه؟

قائمة المراجع:

أولاً: المراجع العربية والمترجمة:

- أفلاطون. (د.ت). الجمهورية. بيروت: دار التنوير
- أرسطو. (د.ت). السياسة (ترجمة أحمد لطفي السيد). القاهرة: الهيئة العامة للكتاب
- بودريار، جان. شفافية الشرّ (ترجمة عبد السلام بنعبد العالي). الدار البيضاء: دار توبقال، 2002
- بودريار، جان. المحاكاة والمحاكاة الزائفة. ترجمة عبده طه. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، 2000
- بورديو، بيير. التمييز: نقد اجتماعي للحكم الذوقي (ترجمة عبد السلام بنعبد العالي). الدار البيضاء: دار توبقال، 2010
- بورديو، بيير، العنف الرمزي (ترجمة نظير جاهل). بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2011
- باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، دار الجمل، بيروت، 2012
- جان جاك روسو. (د.ت). إميل أو عن التربية (ترجمة عادل زعيتر). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب
- جورج هيغل. فينومينولوجيا الروح (ترجمة جورج طرابيشي). بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2006
- جورج لوكاش. التاريخ والوعي الطبقي (ترجمة فالح عبد الجبار). بيروت: دار الجمل، 2011

ريكور، بول، الذات عينها كأخر، ترجمة: جورج كتورة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2010،
ريكور، بول، الزمن والحكي، ترجمة: سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2007،
عبد الوهاب المسيري، رحلتي الفكرية في البذور والجدور والثمر، دار الشروق، القاهرة، 2006،
غوفمان، إرفنغ. عرض الذات في الحياة اليومية (ترجمة كمال عبد الرؤوف). القاهرة: المركز القومي للترجمة 2008
فوكو، ميشيل. (د.ت). المراقبة والمعاقبة. دمشق: دار المدى
ثانيًا: قائمة المراجع الأجنبية

Barthes, R. Image—Music—Text. New York: Hill and Wang 1997.

Baudrillard, J. Simulacra and Simulation. Ann Arbor: University of Michigan Press 1994.

Butler, J. Gender Trouble. New York: Routledge 1990.

Hall, S. Representation: Cultural Representations and Signifying Practices. London: Sage Publications 1997.

McLuhan, M. Understanding Media: The Extensions of Man. Cambridge, MA: MIT Press 1994.

McLuhan, M. The Medium is the Message. Berkeley, CA: Gingko Press 2001.

McLuhan, M., & Fiore, Q. (2001). The Medium is the Message. Berkeley, CA: Gingko Press 2001.

.